المحاضرة الثالثة:

عناصر المحاضرة: تمهيد/ الأخد مفهوم بديل للتأثير والتأثر.

تمهيد

تعد مسألة العنصر اليوناني في قضايا نقدنا العربي القديم من القضايا ذات الأهمية الكبرى في تاريخ النقد، حيث إن الجدل الدائر بين الدارسين في مسألة التأثير والتأثر جدل في مسائل تاريخية، لا يمكن إثبات صلات التأثير والتأثر المباشر فيها، فيما يبقى تأويل النصوص محض توهم ايدلوجي لكثير من مؤولي النصوص، تلك القضايا يمكن أن تكون خادمة للنقد العربي من جهة وللغة العربية ككل من جهة أخرى، إنها مسائل امتد تأثيرها وصداها إلى حدود النقد العربي الحديث، إذ نوقشت مسألة الأثر اليوناني في النقد العربي، وتحدث المستشرقون عن أبي تمام وأثر الثقافة اليونانية فيه، بل إن منهم من غلا فاعتبره يونانيا، فتبعهم في ذلك ثلة من الباحثين العرب الذين تشبعوا بالثقافة الغربية.

بعض ملامح جدل التأثير والتأثر

ثمة مفهوم نقدي عربي هو السرقة، يوحي بأن العربي ناقد كان أو مثقفا، على وعي بمفهوم المثاقفة السلبي،فمفهوم "السرقة" مفهوم أخلاقي يشير إلى السطو على حق غيرنا، كما أن مصطلح آخر استعمله الآمدي بكثرة في كتابه الموازنة واستعمله بدلالة السرقة وهو مصطلح الأخذ.

ولعل مفهوم الأخذ مفهوم متصل ايما اتصال بقضية التأثر والتأثير، ذلك أن العرب أخذ بعضهم عن بعض، فأخذ الاسلاميون عن الجاهليين، واستفاد النقاد العرب عن المنطق اليوناني، والشعراء العرب من الفلسفة اليونانية، وهذا واضح جلي في التراث النقدي العربي القديم، وإلا كيف نفسر الثورة التي أحدثها التحول في الكتابة الشعرية عند كثير من الشعراء أمثال أبي تمام، أبو العتاهية والمتنبي وغيرهم كثير. وفي مجال النقد كيف نفسر ماجاء في كتاب نقد الشعر من آثار تبدو للدارس أنها آثار الثقافة اليوناينة ، وهنا تجدر الإشارة إلى أن الآمدي يفرق بين الشاعر الذي يسير في شعره على مناهج الشعراء ويلتزم بطريقة العرب في القول، وبين من يأتي في شعره بفلسفة أو حكمة دخيلتين.

ويورد الآمدي في كتابه "الموازنة" نصا على لسان أصحاب البحتري يقول: **"قالوا: وإذا كانت طريقة الشاعر غير هذه الطريقة وكانت عباراته مقصرة عنها، ولسانه غير مدرك لها حتى يعتمد دقيق المعاني من فلسفة يونان أو حكمة الهند، أو ادب الفرس، ويكون أكثر ما يورده منها من ألفاظ متعسفة ونسج مضطرب، وإن اتفق في تضاعيف ذلك الشيء من صحيح الوصف وسليم النظر- قلنا له: قد جئت بحكمة وفلسفة ومعان لطيفة**

حسنة، فإن شئت دعوناك حكيما، أو سميناك فيلسوفا، ولكن لا نسميك شاعرا ولا ندعوك بليغا، لأن طريقتك ليست على طريقة العرب، ولا على مذاهبهم فإن سميناك بذلك لم نلحقك بدرجة البلغاء ولا المحسنين الفصحاء"

وحق للأمدي أن يعارض هذا النوع من الشعراء إذا ما هم قتلوا الخصوصية العربية وزينوا الشعر بفلسفات وحكم تبعده عن مذاهب العرب الذين اعتادو على أن يصفوا الشيء كما هو.

وتبقى مسالة الأخذ مسألة واردة ولكن ليس بالمفهوم الذي نوقشت به وإنما هنا نقصد الأخذ بمعنى استفادة بعض من بعض.ومثال ذلك أورده ابن طباطبا في عيار الشعر إذ قال"**ولما مات الاسكندر ندبه أريسطوا طاليس فقال: طالما كان هذا الشخص واعظا بليغا، وما وعظ بكلامه موعظة قط أبلغ من وعظه بسكوته فأخذه صالح بن عبد القدوس فقال: وينادونه وقد صم عنهم ثم قالوا وللنساء نحيب ما الذي عاق أن ترد جوابا أيها المقول الألد الخطيب إن تكن لا تطيق رجع جواب فيما قد ترى وأنت خطيب ذو عظات وما وعظت بشيء مثل وعظ السكوت إذ لا تجيب فاختصره أبو العتاهية في بيت فقال:**

وكانت في حياتك لي عظات فأنت اليوم أوعظ منك حيا"

فالأخذ إذن ليس بالضرورة أن يكون سرقة فقد يكون الأثر الجمالي أو النفسي الذي أحدثه العمل الأدبي في نفس المتلقي هو الحامل على أخذ معناه وإضافته إلى معنى آخر في صلة تركيبة مغايرة دون ان يعني ذلك تلك الحمولة السلبية التي اكتساها مفهوم السرقات الأدبية".فإذا تناول الشاعر المعاني التي قد سبق إليها فأبرزها في أحسن من الكسوة التي عليها لم يعب بل وجب له فضل لطفه وإحسانه فيه.

بل الاكثر من هذا فإن الشاعر قد يعجب بشعر شاعر أخر فيحاول النظم على منواله دون ان يأخذ منه، ولا أدل على ذلك ما حكاه البحتري عن نفسه فيما رواه الصولي:"**قال حدثني الحسين بن إسحاق قال: قلت للبحتري الناس يزعمون أنك أشعر من أبي تمام، فقال والله ما ينفعني هذا القول ولا يضر أبا تمام، والله ما أكلت الخبز إلا به، ولوددت أن الأمر كما قالوه، ولكني والله تابع له، لائذ به، أخذ عنه، نسيمي يركد عند هوائه وأرضي تنخفض عند سمائه**" وهذا اعتراف من البحتري على أستاذية أبي تمام، وبيان واضح على تأثره به وابتغائه السير على منواله.

وعموما فإننا إذا تلمسنا اشعار المولدين فإننا سنعثر على عجائب "**استفادوها مما تقدمهم، ولطفوا في تناول أصولها منهم، ولبسوها على من بعدهم وتكثروا بإبداعها)**"وهذه هي قمة

صور التأثر والتأثير.وما يمكن قوله إجمالا في مسألة الأخذ أنها سمة كونية، ولا يمكن القول أن هناك شعر نابع من غير تأثر وتأثير.